

(مِحْوَرٌ مَائِلٌ)

- 2011 -

أجنحة، نظرات وكلمات.

- شوقي مسلماني

||

حركة

تورثُ حركةً

وشساعةً

تورثُ شساعةً.

||

يكرُّ، يفرّ

يعلم، يعمل

المتردّد

عاقبته وخيمة

المتواني

وخيمة عاقبته

الصمتُ الزائد

رؤيةُ نصف الكأس

التشدّد، الغفلة، الخيانة

المذهبيّة، العنصريّة، الكراهية.

ينحدر:
يفقد أكثر
ومراتِ الحماقةُ
فخرُ صناعة
النباهةُ
دونها مناعة
ويعلم ولا يعلم
ويحلم ولا يحلم
ويقف
ولا يقف.

**

أطوارُ
لكلِّ فصلٍ
مِنَ الفصولِ الأربعة
طُورُ الشتاء
الريِّ
طور الربيع
الخضرة
طور الصيف
الكرم
طور الخريف
التيه.

**

يأتي صوته من البعيد
يأتي صوته من القريب
من الحركة الظاهرة والحركة الباطنة
لا يأتي من فراغ
يأتي من الإحتراس، من أبراج عالية
من مستوصفات ومستشفيات
من جنائن، من سفن شراعية، من أجنحة
من ببغاء ينطق
من الصباح، من الظهيرة
من الحيز المرجاني، من جزيرة في المحيط
يستريح فيها الباتروس.

**

الحدود
ليس لها حدود
الجمال
أن يفسح قلب
أمام قلب
القلب شساعة
فيها زهور، فيها شجر
نخيل، سرو، بندق، أكاسيا
الجمال روح تمسها روح
كلام هذا الصمت
أكثر العيون لا تسمع وأكثر الأذان

لا ترى وأكثر المسير لا يصل
وأكثر النقل بلا عقل.

**

جريحةً بلاد، وجهه البلاد
هو في بلادٍ ظهره محني وفي بلاد
رأسه مرفوع
الصوت وزنه وازن، الصدق وازن
المسألة ليست في محلٍ آخر
هي في كيف تفكر؟ بماذا تحلم؟
ما حجم مسافتك بالألم؟
هل رأسك هو رأس عصفور؟
رأس حية؟ بابون؟ كبش؟ سلحفاة؟
ديناصور؟ جبل؟ حمل؟ نملة؟ صاروخ؟ إبرة؟
المسألة هي أن هذا الرأس موجود
وما دام فلأسباب هي حتماً جزء من التكوين
قد يقول قائل إن للناس شؤوناً وفي كل ما يكفيه
والحقيقة هي أن السؤال يسبق الجواب
هذا من البديهيات وليس من البديهيات
فما البال أن يقال: لا جواب قبل سؤال؟
السؤال لا ينضب، ينطق، يعمر، يرفع، يزرع، يصنع
وقيل: المسألة هي ألا نقول "فات الأوان"
وقد يقول قائل إن الحديث هذا هو عن مسألة حياة أو موت
ليس الإزدحام عفويًا، ليس الفقر عفويًا
المؤامرة ليست عفوية، ليس الجوع والعطش، الإزدحام، الإعتداء..

جُدُورٌ للمؤامرة وللإضمحلال.

**

متحرِّكٌ بأسلوبه، بعقليَّتته، بغريزته
بعضه أقبِلَ مشرقاً وأقلَّ معتماً، بعضه اختنق
صوتُه حتى امحى تماماً أنثره
وها هو منه بعد فقط حجر
بعضه وحده، وقيل أنه على مسافة مئات ملايين الأميال
مِن كوكبنا
يصطاد بقصبةٍ مِنْ ضوء تنهيدةٍ في نهرٍ يابس
وقيل إنَّ بعضه عند قمة جبل
ولكي يطلع الفجرُ مطمئناً يقف شامخاً
كتمثال
وقيل أنَّ شجرةً تفّاح سرقتُ تفّاحته الوحيدة.

**

سطُوٌ مسلَّحٌ تمارسه أمم
البعضُ تغازله الإمبرياليَّة
وصارت عنده هي
أعلى مراحل الأنوار والإنسانيَّة
المفاجأة هي أن تنظر إلى نسر فاذ هو دجاجة
أن تنظر إلى حمل فاذ هو ذئب أغبر
أن تنظر إلى أسد فاذ هو جرد أو فأر
أن تنظر إلى وجه شفاف فاذ هو وجه غليظ
والمفاجأة أنه لا يزال يتفاجأ.

**

مقارنة بينه وبين القمر: كلاهما منير ولطيف
مقارنة بينه وبين النجمة: هي بعيدة وهو بعيد
مقارنة بينه وبين البرق والرعد: مثلهما هو يشرق ويهدر
ومقارنة بينه وبين التمساح: معاً يشقّفان الضحيّة
أذهله الشبه في التقاسيم الداخليّة: العقرب مثله أيضاً يلدغ.

**

كان ينتفض
وكانت تلال أكاذيب
وتلال مذهبيّة.. وخوف.

**

في كلّ اتّجاه
عابر سبيل أو قاطع طريق
أو مصلح إجتماعي أو مستخفّ
أو صياد فرّ أو صياد سمك
وقلق، ومن الكّل:
يمامة، نورس، بطّة، فلامنكو، سمرمر
وحيد القرن، تمساح، ابن آوى، كوالا، أناكوندا
نعجة، دينغو، شجرة صفصاف، شجرة كينا
نعناع، صعتر، رشاد
أسد البحر، فيل البحر، حسان البحر، قنفذ البحر
بعوضة، نمل الذهب ونمل أبيض.

لا نهضة ولا مَنْ ينهضون، لا عِلْم ولا مَنْ يتعلّمون..
مدارس كلاسيكيّة، مدارس رومنطريقيّة، مدارس رمزيّة
مدارس غنائيّة، مدارس سرياليّة، مدارس تكعيبيّة
مدارس تجريديّة، مدارس حدائويّة، مدارس ما بعد حدائويّة
وجميعها لم تستطع أن تغلق نافذة واحدة
في مدرسة خبط عشوائيّة واحدة
هل يروقكم ألاّ يكفّ الدجاجُ عن نقدنا؟
هل يروقكم أن ينكسرَ الموجُ وكلّ قصد البحر
أن يصيبنا بالرداذ لكي يغسلنا علّه يزيل بعض الأدران عنّا
كما يقول بالهدير والزئير؟
هل يرضيكم أن تركزَ العصافيرُ بالزقزقة
والأنهرُ والسواقي بالخرير والأشجارُ بالحفيف
والأبقارُ بالخوار والأغنامُ بالثغاء
والحميرُ بالنهيق والخيولُ بالصهيل والذئابُ بالعواء
والكلابُ بالنباح والأفاعي بالفحيح ضحكاً منّا وعلينا؟
هل يرضيكم ألاّ تكفّ الضفادع عن النقيق
وأن تحرمنّا النومَ الهانئَ العميق؟
هل ترضون أن نغدو لقمة سائغة يعلّقها الأسد
أو الفهد، أو النمر، أو الضبع، أو كلّ ابن آوى، أو كلّ ابن عرس؟
هل يرضيكم أن تجترّنا الأبقارُ والأغنامُ؟
هل يرضيكم أن تتهامسَ الفراشاتُ مع الزهورِ
أنّا أجلاف وعلوج؟..
وأنا في سبيلي إليكم كي أكون في حضرتكم

وتحديداً عند بعض الماء

حظي بي فيل وقال لي بالنهيم:

"أيها الحقير، ألا يوجد دمّ في جنسكم؟

ما أنتم فيه هو الضلال المبين

أليست فيكم كلمة طيبة؟ ألا تصنعون صنيعاً طيباً؟

ألا تشربون صعيداً طيباً؟ ألا تسلكون مسلكاً طيباً؟

ألا تفلعون عن الخزي والعار الذي أنتم فيه؟

الكبير والصغير والمقمط في السرير

ومن القطب وإلى القطب

يبلغه خبركم المشين

النارُ تأكلهم منكم مثلما تأكل في الهشيم

قلْ لقومك الأشرار مثلك إني كما نفى أفلاطون قوماً

من جمهوريته الفاضلة

يوماً سأُنفيكم من مملكتي"

ولكثني بخرطومه وقذفني في الهواء

ووقعتُ على جنبي، وأنا أنهض قال لي غراب

من غصنٍ يابس في شجرة خضراء

وهو ذاته الذي من يومين أضرم النيران

في بيتٍ فقير كان يؤويه:

"أيها النكرة

قلْ لأهلك النكرات مثلك

أنّ كلامَ الفيل هو فيل الكلام"

وقال آخر:

"كيف أغار لمن لا يغار لي؟

كيف أفرح بمن لا يفرح لي أو بي؟

كيف أشتاق للذي لا يشتاق لي؟
ماذا أصنع مع مَنْ يُدافعني ويُزاحمني
على التبن والأتن؟"
وقال ثالث: "لماذا كلّ ذي أنف أو منقار أو خرطوم
يريد أن يدسّ أنفه أو منقاره أو خرطومه بشأننا؟
إسمعوا يا قومي خبري:
بعد كدحي كدح حمير مجتمعة أويثُ إلى مرقدي
مع غيابِ الشمس: لكي أنام
هبطاً إليّ مِنْ طاقة صغيرة قريبة مِنَ السقف
خفّاشان ضئيلان حقيران
مِنْ جنس الخفافيش مصّاصة الدماء
وَمِنْ فورهما جرحاً عقباً لي بمباضع لهما
وخدّراتي موضعياً وتناوبا على اللّلق مِنْ دمّي
وشتّم أبي وأمي
وقال أحد الخفّاشين المجرمين:
"هؤلاء التافهين، سأكرع مِنْ دمهم ما حييت"
وبعدما إمّلاً طارا عبّرَ الطاقة ذاتها إلى شأنيهما
وأنا طوال الوقت لم أفعل شيئاً سوى أن أسمع
وأتعلم عليهما لغتهما الوطواطية المنقّرة
فأفهم عنّا ماذا يُقال بنا
ولئن رجعا إليّ سأدوسهما
سأفعضهما، سأمعضهما، سأهرسهما"
وقال رابع: "كان نسرُ الجيف
لَمّا أنبأه الهواءُ عمّا في المسافة
عندَ كتف جبل

أفردَ جناحيه وطار
وبعدَ وقت ليس بالقليل رأى النار السعير
لم تغادر شيئاً إلا وقد سوّته رماداً
وظلَّ في السماوات العلى يلفّ ويدور قهراً
ولحقَ به أهله وشرعوا يلقون ويدورون معه
وهم يطيبون خاطره لكي يرجع معهم إلى وكره
ويرتاح قبل أن تخور قواه ويسقط ويفك رقبتَه..
وفجأةً انتهى الفيلم
وظهرت على الشاشة كلمة: "يتبع".

**

وفي "فيلم" آخر
قرّر أخ لنا أن يثار
ممن أخذوه لحماً
ورموه عظماً
خرج إلى بريّة، ثناءب
وتمطّى
واعتبرَ ذلك تسخيناً وتدريباً
كافيين
كشّر مثل كلب دوبرمان
ركض وطار مثل سوبرمان
صاح عندَ سحابة عابرة مثل طرزان حي بن يقظان
رفسها، شرقتْ وزمجرتْ، وهبطَ وهو يرفس كأنه في مسّ
ووقعتْ لبطّة في أمّه، ووقعتْ لبطّة في أبيه
ووقعتْ لبطّة في جدّته فاستعجلتْ وقضتْ

ووقعتْ لِبَطَّةً في حمل لا ناقة له بعدُ في الدنيا ولا جمل
ووقعتْ لِبَطَّةً في حائط، هو كلُّ ما تبقى لعجوز ليس لها معيل
من بيتها القديم، بعدَ غارةِ رِبطةِ العنق، الشوكة والسكّين
هدنّه، فرفعتِ العجوزُ يديها إلى السماء
وتمنّت لو تأخذ بخناق القوم الظالمين
ووقعتْ لِبَطَّةً في بطّيخة انفجرتْ
وطارتْ شظايا، واصطبغتْ حجرانُ بدمها الأحمر الوردِي
والكلبُ ينبح ويقول له: "يا حمارَ الحمير
إتّك تؤذي أهلك الذين هم في قهرٍ مثلك"
ولا من يسمع..

ويتسلّل التعبُ إلى بدن أخينا فيطلب الراحةَ بظلِّ شجرة
تشتدّ شمسُ الظهيرة، يُشرقُ وتضيء في رأسه فكرة
ينهض، يزفر ويشهق مصدراً صوتاً ولا أنكر
قولوا هو زَمور خطر
ينادي أشباهه في الخلق ليهبّوا إليه
ويهبّون إليه من كلّ فجٍّ عميق وجلهم تيوس وأكباش وثيران
وقال فيهم خطيباً: "سلاح اللبيط هو سلاح العبيط
مثله مثل سلاح العضّ الذي يتباهى به زميلنا العزيز الكلب
الذي يعمل نباحاً ليلاً نهاراً بأجرٍ مقداره عظمة
وغالباً هي جرداء حتى ولا لحسة لحم عليها واحدة
قررتُ أن أفني الأعداء بالضربة القاضية"
وحثّهم أن ينتشروا في البلاد بحثاً عن كلّ جهيد
بعلوم الغازات التي تمتلئ بها بطون
لعمل قنبلة
حثّهم ألا يعودوا وهم قرنٌ من أمام وقرنٌ من وراء

وصاح تيس: "بالأمس قطع ساطورٌ منهم ساعوراً مناً:
الموتُ لهم"

وخرجوا ورجعوا بحزمة من الجهابذة

الذين بعضهم صناعة أجنبيّة وبعضهم صناعة وطنيّة

وقال الجهبذُ جحششتاين: "ولكن بشرط أن نمحو أيضاً العصافير

والفراشات والزهور وحفيف أوراق الشجر وحكايات المطر"

ولا يليق أن أستفيض

وفي الختام من هذا "الفيلم" الرائع في مضمونه

وفي إخراجة وفي موسيقاه التصويريّة التي أين منها موسيقى فيلم "سايكو"

خصوصاً في مشهد الحمّام التي تُجهض الحامل البكر

وتصيب بالشيب رأس الوليد

وحدّثوا عن المونتاج والإنتاج والمؤثّرات الصوتيّة

وغير ذلك ممّا في صناعة السينما المتقدّمة

ونرى من بعيد نيراناً على ألوان في أبنية معزولة في عمق الرمل

ونرى الدخان يتكاثف على ألوان.. ونرى الكاميرا تتحرّك مستعجلة

ونرى أكداًسَ نافقين.. ونرى مختبراً كبيراً محطّماً.. وجحششتاين نافقاً..

وكأنّما حركة ما تحت طاولة فإذ هو أخونا البطل الرئبال

كلّ شيء فيه هامد سوى بطنه كأنّما لا يريد أن يهدم قبل أن يهضم

بعد لقمة أخيرة فيه

أو بسبب من قوّة عجيبة غريبة تصرّ أن تطلّ تنبض

في هذا الكون العجيب الغريب.

**

قال:

أنت، يا أنتَ خلف الستارة

ماذا تدبّر؟
يا أنت خلف الستارة
تدبّر ماذا؟
تدبّر بركاناً؟ تدبّر زلزالاً؟
تدبّر رمحاً؟ رصاصَةً؟
وباءً؟ إحترافاً؟
ومنذُ قديم تدبّر مرّة قرناً
وعندَ منعطفٍ لصّاً
وكانت معاكسات وكانت مناوشات
وسماء قاسية وأرض قاحلة.

**

والعقل
كلُّ الرقّة.

**

رأى حكماء
بعضهم على أتّن
تتبعهم أمم
وقلّما، غالباً، ويا للأسف
وصلوا
بعضهم فاتح وقلّما
انتصروا
ورأى الأرض المظلمة ورأى القمر.

**

يقدر، يحتمل
يُوهَب ويُسَلَّب
شجون يخطّها المطر
على زجاج النافذة
في كلّ خطوة أثر
يطفو ولا يطفو
له انكسار الكلّ
وبلاد ليس فيها بلاد.

**

بعضٌ فيه
يعرف ولكنّه غير مصرّ
بعضٌ فيه
ينطق ولكنّه لا يقول..
وبعضٌ
يغني أغنيةً حزينةً.

**

رأيتُه يرى المساحة الخضراء
رأيتُه يرى المساحة الرمادية، لا يرى المساحة
تحت المساحة، يحرت ويبذر في المساحة
يحبّ ويرى الزهور، الورود، الفراشات، الطيور
ويصغي جيّداً عند المساحة
رأيتُه الكلّ.

**

يَهْتَمُّ وَلَا يَهْتَمُّ
يَسْعَى وَلَا يَسْعَى
ذاتَه ذُو الْخَنَاجِرِ، ذُو الْأَسَاسَاتِ
وَلَيْسَ هُوَ ذَاتَهُ
تُفْسِحُ الْقَلَّةُ لِلْكَثْرَةِ
لَكِي تَكُونُ ضَرْبَةَ سَيْفٍ وَاحِدَةٍ
كَادَ يَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْأَلَمِ
رَأَى عَوَاصِفَ، أَعَاصِيرَ، أَثَارَ أُمِّ غَابِرَةَ
رَأَى أُمًّا تُنْذِرُ أُمًّا
رَأَى مَنْ يَقُولُ وَمَنْ يَصْمَتُ وَالْمَقْفَلُ - الْمَحَاصِرُ
رَأَى مَا لَا يُحْصَى
رَأَى رِمَاحًا، سِيُوفًا، صَوَارِيخَ
وَرَأَى فَرَاشَاتِ
وَمَنْ يَعْقِلُ وَمَنْ يَجْهَلُ
مَنْ يَعْتَبِرُ وَمَنْ لَا وَالْجَرِيءَ وَالرَّائِي.

**

يَأْتِي صَوْتُهُ مِنَ اللَّقَالِقِ
مِنَ الْحَرَادِينَ، مِنَ الْجَرَادِ
مِنَ عَوَاصِفِ رَمْلِيَّةِ تَهْبُ
مِنَ حَفِيفِ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ
مِنَ زَغَارِيدِ فَرَحِ يَنْكَمِشِ
مِنَ عِزَّةِ النَّفْسِ الَّتِي تَنْكَمِشِ

مِنْ عَنَّاكِبِ
يَأْتِي صَوْتُهُ مِنْ جَرَسِ
يَأْتِي مِنْ كَأْسِ مَحْطَمَةٍ
مِنْ شَقَاءٍ، مِنْ كِرَاهِيَةٍ
وَفِي الْإِتِّجَاهَاتِ كَأْفَةٍ
مِنْ صَوْتِ رَخِيمٍ، مِنْ صَوْتِ جَهْوَرِي
مِنْ فَوْهَةٍ بَرَكَانَ
يَأْتِي مِنْ الشَّلَالِ
مِنْ لَحِيَةٍ تَصِلُ إِلَى الْأَرْضِ
مِنْ ثَقْبٍ فِي الْقَلْبِ يَتَّسِعُ
مِنْ تَلْفَازِ
يَأْتِي مِنْ أَلْعَابِ لِلْأَطْفَالِ
مِنْ مَسَاكِنِ تَلِيْقُ بِأَبْنِ آدَمِ
مِنْ إِنْقِرَاضِ
مِنْ الْفُصُولِ الْمُتَعَاقِبَةِ
مِنْ حَرَكَةِ الْمَدِّ وَالْجُزْرِ
مِنْ الدَّمُوعِ.

**

المسألة
هي مَنْ أَنْتِ
أَيْنَ تَقِفِ
وَكثِيرًا نَزَلَ عَلَى سَطْحِ الْقَمَرِ
حَتَّى حِينَ نَظَرَ مَرَّةً إِلَى السَّمَاءِ
وَأَمَعْنَ النَّظَرَ

وكثيراً ما أمعنَ النظر ولكن ليس دائماً جيّداً
رأى أناساً آخرين
رأى غاباتٍ وطيوراً وأنهاراً وبحيرات
بحاراً، صحارى، جبلاً شاهقةً وأودية سحيقة
سهولاً، مروجاً، حقولاً، بيوتاً، حُبّاً، أمالاً، أحلاماً
ورأى قردهً على أجناس ودواباً من أجناس
وطيوراً وزواحف وبرمائيات وأسماكاً
وكان ينظر ملياً وجيّداً
وعندما لا ينظر ملياً وجيّداً كان يهبط
الحوادث تتكرّر
يمضي واثقاً ثم متردداً ويضمحلّ
الغريب أنه هو ذاته الغريب ويتساءل
إذا يوجد غرباء؟!
رأيته يفكّر على نحو منطقي وعلى نحو غير منطقي
أول مرّة نزل على سطح القمر لما كذلك
استلقى قريباً من النار.

**

لكلّ زمان عقل
أم لكلّ عقل زمان؟
لكلّ مقام مقال
أم لكلّ مقال مقام؟
كلّ حيّز له حركة
أم حركة لها حيّز؟
حياة لكلّ مسافة

أم مسافة لكلِّ حياة؟

دمعة في كلِّ عين

أم عين في كلِّ دمعة؟

جسم في رحيل

أم رحيل في جسم؟.

**

وسمعه يقول:

"بئسَ مَنْ أدركَ الفكرةَ ثمَّ غفلَ عنها"

"بئسَ مَنْ أدركَ الفكرةَ وتخلَّفَ عنها" ..

"أعلُّ النفسَ بالأمالِ أرقبُها" ..

وينتشر خرافةً في خرافة

ويرتفع وفي آن:

يحفر ليهدَّ أساساتٍ ويجعلها خلفه

وها هو يقف على قدمين ..

ويصطاد، يزرع ويصنع

ها هو ينطق

خيوطٌ وحبالٌ تتقاطع

شبكة هي عين الكرة الأرضية

ليس أن تصعد إنّما كيف؟

على سلّم عظامٍ وجماجم

أم على سلّم موسيقى الحب؟.

**

لابدَّ مِنْ كَسَلٍ لتطيرَ فراشات

كنا هناك وهم رأوا محيطات من غابات
الظهور كانت محنية، لا تكاثر إلا بمقدار الأقل
إنه محاصر بخطر
كنا هناك وهم رأوا. وانحسرت محيطات الغابات
وكانت أمواج البحر تتقدم
انقضت أحقاب وأحقاب بين الحجارة والصخور المسننة
وبعد كل حقبة كانوا يقولون: "حقاً كنا في ضلالٍ مبين"!.

**

وقرّر أن يفرّ
ولم يقرّر يوماً
وفي الوقت المناسب
وهذه هي المرّة الأولى أيضاً
أمل ولم يكن يأمل يوماً
وكانّ الوقت المناسب متواطئ معه
أسرع وهمس بأذن الشمس عن موبات
وقيل إنه همس للشمس عن مظالم تُرتكب في الأرض
جهاراً ولا وازع ولا رادع.. ويسود ظلّ القوّة الوحشيّة
وتُداس بالأقدام كلّ شعارات العدالة
وقيل إنّها صدقت فقد رأيت
واستقرت في كبد السماء وهبرجت
ودلقت نيراناً رهيبة صوب الأرض:
لمح كيف سيّده طار ليحتمي بدارته
وهكذا جاء الوقت المناسب
انطلق هارباً وهو لا يعرف إلى أين؟

لكنّه يعرف أنّه يجب الإبتعاد مقدار ما يستطيع
وحتى يتيقّن أنّه مستحيل على كائن بعدُ أن يكون يتبعه
ظلّ يعدو بخطّ مستقيم والريح تعبت بشعره
بلغ أرضاً رأى عندها بئر ماء
تذكّر أنّه سبق وتواجد في هذا المكان
مرّة، وهو مع سيّده القاسي، الجائر، المجرم
ذاته أطلعه أنّ البئر هو بئر السباع وأنّ الإسم مقتبس
من حادثة اعتداء أسد مستهتر على حمار للبطل سالم
قام وحزّ رقبة كلّ من قال إنه من النسل
وغفّ على المستهتر وجعل له رسناً بعدما أشبعه ركلاً ولكماً
وحتى سمعه يقول: "سامحني أيّها البطل لن أستهتر بعدَ اليوم أبداً"
واقترّب الزير سالم من البئر حيثُ حماره القليل
ملاً قرّب الماء وجعلها على ظهر الذليل
وجرّه نحو مضارب العرب ولسان الحال يقول وأعمار الجميع تطول:
هذه هي حال من يجني ولو على دابة في حمى العرب"
وانتبه أنّ الحادث هذا قد انقضى
وأنّ الزير، رحمة الله عليه، قد قضى
وقال لذاته: "ما أدراني أن يكون بعض الأسود قد فرّ
ونجا من تلك المذبحة ثمّ بلغه نبأ وفاة الزير سالم
ورجع إلى الناحية غير هيّاب ليقتل ويسلب؟"
وفرّت قنبرة كانت في عشّ قريبٍ فأجفل
ومنّ دون أن يلتفت طار
وظلّ يعدو حتى مَشارف مسافة هي خلاء
ليس فيها، على امتداد النظر
إلا شجرة واحدة وعند جذعها كائن..

اقتربَ واقتربَ ورآه من عين بني جنسه
يقتعد حجراً وأمامه حجر عليه جهاز مستغرق فيه
يقترب أكثر بحذر أكثر..

وحياه بالزفير والشهيق الذي هو عين النهيق
فلربما كان من الجنّ الشرير فيضحّ ويفرّ..
لا، لا ضجّ، لا فرّ أو اختفى..

زفر ثمّ شهق..

وسمعه يقول، وهو لا يحيد النظر عن ما هو فيه:

"اقترب يا بني ولا تخف، أنا لستُ جنياً شريراً، أنا من بني جلدتك
وحسناً فعلت أنّك فررت من وجه سيّدك القاسي، الجائر، المجرم
الذي طالما ضربك وأهانك بأمّك وأبيك وعموم أهلك
ولكنّ أكثر ما استصعبته أنّه وحده كان يفوز بالأطيب
كالجوز واللوز الأخضر واللوز المقشّر والأرزّ والفريز والموز
وبالكاد يرمي لك الفتات

حتى بلغ السيلُ فيك الزبي يومَ التهم وحده سلّة توت طافحة
ولم يلقمك حتى حبة توت واحدة"

ودعاه إلى جرعة ماء انتشلها له من تجويف في جذع الشجرة
أخذها وشربَ وارتوى.. وهطل الدمع من عينيه
وقال بتضرّع: "ساعدني أيّها الشيخ"..

قال، وباختصار شديد ما عليه مزيد، مشيراً صوب ناحية:

"غرباً، وستصل بحراً، وستصل بلاداً راياتها قراصنة

تقصد كليلتها العسكرية وتدرس فيها

وفي آخر السنة الدراسيّة سيكون إمتحان

وأنت وشطارتك بين درجات من وسط وجيد.. إلى جيد جداً

ممتاز، مرتبة الشرف، وقد تنقلب ذنباً أو ضبعاً أو فهداً أو أسداً"..

وتعاكس وهو في مكانه بحركة آليّة وأشار إلى الناحية المعاكسة
وقال: "أو شرقاً.. وبعدَ مسيرة ستشرف على صحراء رمل
وستصل إلى واحة، فيها، مخزّبة.. وستسمع صوتاً يقول لك:
"تأخّرت كثيراً يا أبا صابر"

وسينبثق جملٌ.. ستتبعه حتى يبلغ بك بلاداً هي "الكتكويتية"
من فورك تلتحق بكليتها العسكرية
وأنت وشطارتك.. وطبعاً بعدَ الحفظ والحفظ والحفظ
وقد تنقلب غزاً أو.."

وقبل أن يكمل قاطعه وقال وقد عرف: "أكلأ لا مأكولاً.. بل غرباً"
وبلغ رايات الهياكل العظمية والتحق بكليتها العسكرية
يعمل بالمجان نهاراً ويدرس عليهم ليلاً
واجتهد بصبر حمير مجتمعة ونجح مع مرتبة الشرف
وفي حفل التخرج علّقوا على صدره ورقة
قالوا مكتوب فيها: "أنا الناب والناب أنا"

أنا الأسد الرئبال، أنا قاتل الرجال ومسبي النساء والأطفال"
حاول ذاته أن يقرأ ماذا مكتوب: قالوا له لا فائدة

فالمكتوب ليس بالحر الأسود الصيني بل بالحر الأبيض السري
وهو أخيراً في مرقده، متباهياً بحاله وبالعرّ الذي يرفل به
خطر له سيّده القاسي، الجائر، المجرم.. وحدث نفسه بالإنقاذ
ومع الفجر حملَ كلاكيشه وعبرَ البحرَ الأجاج بعدَ أهوال
وأيضاً بلغ راكضاً ناحية ابن جلدته الشيخ، متمنياً لو لديه وقت
واجتازَ بنرَ السباع

وهو عند مشارف موطنه الأول رآه أمامه ينظر إليه مندهشاً
قال: "يجب أن تندهش، لقد انقلبتُ إلى سبع"

وأردف: "هل تعلم بماذا سأجازيك على بلاويك؟"

سأثبُ عليك، سأنيبُك في كلِّ جسمك" سأمرّك
وقال: "ولكنْ ليس قبل أن أملأ قلبك بالرعب الجدير بأمثالك
لتموت ألف مرّة قبل الميتة الأخيرة" ..

ولم يؤجّل عملَ اليوم إلى الغد:
رفع رأسه وأطلق زئيراً ردّده الصدى نهيقاً
ومنْ جديد.. وسمعَ الصدى يردّد صوتَ نهيق
لمسَ أسنانه ليصطدم بناتئ.. فلمْ
سمعَ سيّده أخيراً يقول: "أحلفُ أن أنت هو أنت"
وبسرعة ففرّ وقبضَ عليه من رقبته وقال له:
"أنا أشقى، يا حمار الحمير، وأنت داير على حلّ شعرك؟"
وبعدَ فترة تواطأ الوقتُ المناسب مرّة ثانية بمعجزة أيضاً
وفرّ مجدّداً تحت غطاء من اللهب الآتي من عين الشمس المجنونة
ومرّ ببئر السباع وترحّم على الزير سالم أبو ليلي المهلهل
بلغَ مشارف الخلاء
قصدَ الشجرة الوحيدة وشيخه ذاته تحتها
وقفَ خلفه منْ دون أن يفتح فمه أو يأتي بحركة
وبعدَ وقت سمعه يقول له منْ دون أن يلتفت:
"سلامتك يا بني"

والتفتَ وراه على حال تصعب حتى على الحجر
أحنى رأسه خذلاناً فنهقه باكياً: "أنظرُ
عملتُ بمشورتك وإليك النتيجة
عصيّ المايسترو سيّدي تحفر أثلاماً في جسمي كلّ
هل انقلبْتُ حقاً أنا إلى سبع؟
أحلفُ أنّك ولا تراني حماراً
أنا إلى منْ الجأ؟

لماذا هو سيدي ضدي وأنت شيخي ضدي؟
ماذا جنيت وعلى من اعتديت؟
هل لأنني قليل وهو مؤيد يدوس علي؟
قال: "لستُ يا بني ضدك"
ودعاه ليقرأ سطرأ على شاشة الجهاز إياه أمامه
وذاته بادر وقرأ: "يجب ومن كل سبيل
أن نمنع وحدة البرابرة"
وصرخ مجنوناً
والصدي تردده الجهات كأنما في حركة دائرية:
"هذه مجزرة".

**

الصبرُ الحكيم
رأسُ الحكمة.

**

أنا في محلّ وأنا المحلّ
المحوّرُ مائل والأرضُ تدور.

**

واشتعلتِ الحرب
واستبسلَ أيّما استبسال
كانت مهمّته أن يشيل على ظهره
خلل الغابات البكر والأودية السحيقة
والممرّات الضيقة، الخطرة، عند أكتاف جبال شاهقة

إلى خطوط النار الأمامية
وأن يرجع بالمحمومين والجرحى والقتلى
كافأوه حتى رقي من شلال إلى عتال
ويا له من أخرق، ثم إلى حمال
ولكن في آن، والحق يُقال
كان يحظى بمكتسبات
كان يقتات مما ينجم
صارت له مائدة
كان يستحم
وهو تحت وابل المطر
أو فيما هو يخوض نهراً
وصار له معاون يحممه وينشّفه
ويعطره بأجود العطور
ومُحال أن يستقرّ حال على حال
خصوصاً وأنّ الحرب قد طالت
وما كان عملية جراحية بسيطة صار
عملية دقيقة خطيرة فيها حياة أو موت
وشحّت الموارد وأصابه التقنين
وأتى له على مكتسباته وامتيازاته
التي حازها بجداره..
وطال أمد الحرب
وساءت أخلاق الجند أكثر
وهم الأعلى رتبة منه
رأهم بأمّ عينيه يفتكون بأسرى
يغيرون على قرى بيوتها شبيهة بأعشاش عصفير الدوري

ويضرمون النيران ويلقون في النهر لسمك البوراناً عيوناً
ثم لم يعفوا عنه

كانوا إذا أرادوه أن يتحرك يقولون له: "تقدم" وصاروا
يأمرونه بلوم قائلين له: "حا". وكانوا إذا أرادوه أن يقف يقولون له:
"قف" وصاروا يأمرونه قرفاً أو غضباً: "هش"

وطلب قائد الغزو مزيداً من القوّات والمعدّات
وامّحت مطارح عن الخريطة ومات الكثيرون
وليس الهدف حقول الموز طبعاً

إنّما كما زعموا فالهدف هو تنصيب الديمقراطية ملكة
ويجب أن تنتصر الحضارة على الهمجية

وعلى رغم إنجازات الغزاة فإنّ المقاومة لم ينكسر ظهرها
بل أكثر تكاثرت، فكّما استشهد لها بطل قام مكانه فوراً مقاومان
ووقعت عين الموت على الحمّال ذاته

وهما وجهاً لوجه لم يقدر عليه

حاصود الموت أخيراً له سعة ولا يستطيع أن يحصد أكثر
أصابه مسّ وأقسم أنّه لن يهدأ ولن يهنأ حتى يرى الحمّال صريعاً
كمن له تحت حجر عند ممرّ أعالي جبل شاهق

داس على الحجر، فهزله له كي يتعثّر ويسقط إلى أسفل
حيث صخور مسنّنة.. وما من فائدة

أرشد المقاومة إليه

قصفوه بالكاتيوشا: وامّحى كلّ من معه وهو وحده نجا
وهمس لذبابة معتمداً الحرب النفسية الخطيرة

أن تقوم عند أذن الحمّال وإلا نزع روحها من جسمها
وأوحى للحمّال أنّ الأزيز هو لصاروخ مزوّد

بالأّ ينفجر إلاّ وهو في رأسه داخلاً إليه من أمّ إحدى أذنيه

وأصيبَ الحَمَلُ بصعقة ولكنْ أيضاً لم يمِثْ
وأصدرت المقاومة منشوراً
تستنكر فيه وضع اليد على حقول الموز
أو أن تكون الديمقراطية
هي حقّ الذئب أن يفلت بين الحملان
وصمّمتْ على الإستمرار في المقاومة المسلّحة
وبدأتْ قلاع الغزو تسقط تباعاً حتى لم يبقَ إلاّ سطح مغارة
قيل إنّها سفارة
وحطّتْ عليه مروحية عسكرية
وبسرعة فرّتْ بما حملتْ
فيما حبلٌ يتدلّى منها
وقفز الحَمَلُ بيأسٍ أخيرٍ وتعنزق
ورجع إلى ديرته ناجياً بروحه
ولكنْ ليس بكلِّ عقله.

**

في وجهه مخلب
في وجهه رجل صالح
أو امرأة صالح
في وجهه مُكر
وقطرةً قطرةً صارَ البحر
العظيمُ، الأزرقُ..
وقطرةً قطرةً يجفُّ.

**

وكان منه صعاليك
طلبوا الحرّية غير منقوصة
وكانت لهم كلمة
مع قطاع الطرق الحقيقيين.

**

مساحاتُ
استردّها البحرُ
وخرج البحرُ ليحيا
في بحرٍ آخر.

**

قفزات
مرات تأمل
أكثر ممّا تعمل..
وتدمّر أكثر ممّا تعمّر.

**

رحلة طويلة
بأنسة، مؤسفة.

**

خفيضات الصوت..
وجعلوهنّ في مرتبةٍ أقلّ.

**

البيت الذي ليس فيه بيت
القلب الذي ليس فيه قلب
الوجه الذي ليس له وجه
والرأس الذي ليس له رأس.

**

أمكنة
يتراكم فوقها الرمل.

**

مسافة
وشجرة وحيدة
عليها قميصها الأخضر
وتائه يبحث عن نظر.

||

والعقلُ
يدركه العقل.

Shawkimoselmani1957@gmail.com